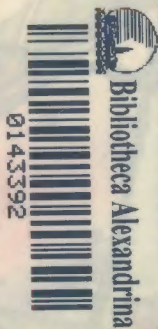


صالح جودت

بلد بين مكة والمدينة

أفقا



اقرأ

تصدير أول كل شهر

[٣٥٥] ١٥ أغسطس - ١٩٨٤ هـ

رئيس التحرير أنيس منصور

صباح جودت

بلايكي الشرق

الطبعة الثانية



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

شاعر الرقة العاطفية

إبراهيم ناجي

سبعة من سراة العاصمة اتفقوا على أن يهجروا ضوضاء المدينة دون أن ينأوا عنها . فاهتدوا إلى مساحة واسعة من الأرض تقع وراء محطة مصر ، عند الموقع المعروف الآن بشبرا الصغرى ، وكانت يومئذ حقولا تجرى من تحمها نهيرات مياه الرعة البولاقية ، وتتفرع منها قنوات كقنوات البندقية .

وفي هذه المساحة الشاعرية ، أسسوا « مدينة الأحلام » وأقاموا بها بيوتاً هي أقرب إلى القصور : أولها بيت السيد حسونة الطوير (وهو يومئذ عامل تونس في مصر) - يليه بيت المرجوشي ، التاجر الكبير بالغورية - يليه بيت العطار ، التاجر بالصناديق ثم ينحرف الطريق يساراً ، وعند منتصفه يقوم البيت رقم ٢٢ بشارع العطار ، وهو بيت أحمد ناجي ، الذي نشأ فيه ابنه الشاعر إبراهيم ، ثم يليه بيت الشيخ إبراهيم الشرقاوى ، حفيد الشيخ عبد الله الشرقاوى الكبير .

وفي ركن من الحى ، يقوم بيت عثمان جلال ، الأديب المعروف وصاحب « العيون الواظظ » يليه بيت الزعيم محمد فريد . وهكذا أحاطت بشاعرنا في طفولته عطور الزعامة الوطنية والدينية والأدبية والعصامية .

ومن اسم هذه المدينة الصغيرة - مدينة الأحلام - استوحى شاعرنا قصة نصف طويلة كتبها في منتصف عمره ، وظهرت ضمن مجموعة

من القصص المؤلفة والمترجمة ، أطلق عليها جميعاً اسم « مدينة الأحلام » .

وفي بيت من هذه البيوت السبعة أيضاً - ولا أسميه - كان الحب الأول في حياة الشاعر ... الحب الذي طارد خياله طول حياته على يأس .

* * *

وشاعرنا هو ثاني أخواته وإخوته السبع .

ولد عند منتصف الليلة التي صافح فيها عام ١٨٩٨ عام ١٨٩٩ وسجل على أنه من مواليد ٣١ ديسمبر من عام ١٨٩٨ ، وكأنه أبي إلا أن يشهد عاماً واحداً من القرن المنصرم ، ثم يقضى بقية ما كتب له من العمر في القرن الجديد .

ورث شاعرنا عن أبويه كثيراً من خلاهما .

ورث عن أبيه حب العلم ، والدأب في القراءة ، والذاكرة القوية ، والقدرة على اللغات ، فأجاد الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وقرأ كثيراً من آداب هذه اللغات ، فإذا كان أبوه قد اكتسب الجاه بالعصامية ، فإن شاعرنا قد اكتسب الأدب بالعصامية ، فعلم نفسه مالم يلقيه إياه أستاذ ولا مدرسة ، وبه شأنه - وهو الطيب - في الشعر والأدب والقصة وعلم النفس وغيرها من ضروب الثقافة .

وورث عن أمه إنسانيتها ، وخفة ظلها .

يروى عن أمه أن طاهى البيت أصيب بذات الرئة ، فاستبقته في البيت بقية حياته ، تبعله وتحذب عليه ، دون أن يعمل .

وقد نشأ ابنها الشاعر على شاكلتها إنساناً لا يملك ما في جيبه ،
وطبيباً عيادته مفتوحة الأبواب على مصراعها لفقراء الأدب والفن وغيرهم .
وكانت هذه السيدة الظريفة تحسن النكتة . وقد نشأ إبراهيم على
جديلتها ، فكان من ظرفاء عصره ، وله نكات مأثورة تجرى مجرى نكات
البابلي والبشرى وراعى وغيرهم من ظرفاء العصر .

* * *

التحق شاعرنا ، أول ما التحق ، بمدرسة « سبيل أم محمد على »
إذ كانت أقرب المدارس إلى البيت ، ثم لأنها كانت على غرار رياض
الأطفال في عصرنا .

كان ذلك سنة ١٩٠٤ .

ثم انتقل إلى مدرسة باب الشعرية الابتدائية ، وبدأ يتفوق على أقرانه
ويفوز بجوائز التفوق في كل مناسبة . فلما أدرك العاشرة ، سأله أبوه
أية هدية يطلب إذا نجح ، فأجاب شاعرنا بأنه يتطلع إلى كتاب من
كتب تشارلز ديكنز ، إذ كان إبراهيم مفتوناً بهذا الكاتب . وإنك
لتجده في مقدمة كتاب « مدينة الأحلام » يقول إن تأثير ديكنز
عليه كان بالغاً ، وإنه هو الذى فتح له آفاق الجمال ، فأصبح يحب
الخير الذى كان ديكنز ينشده للفقراء والمعوزين ولوطنه وللناس جميعاً .
وهكذا سيطر عليه الحب الذى لا يكاد يخلو بيت واحد له من
ذكره .

* * *

وانتقل إبراهيم بعد ذلك إلى المرحلة التالية من حياته المدرسية ،
فالتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا .

وهنا تبلورت اتجاهاته ، فقد بدأ محاولاته الشعرية وهو في الحادية
عشرة ، وحفظ ديوان الشريف الرضى من الغلاف إلى الغلاف .

ولم توفاه سنة ١٩١٢ حتى كان ينشد الشعر - شعره هو - وهو في
الثالثة عشرة ، ينسجه على المنوال الذى حفظه . منوال الشريف الرضى ،
ويستعين على ضبط أوزانه بالتفاعيل والدوائر والشرط .

* * *

بدأ شعر إبراهيم يتردد فى مجالس أصدقائه ، ويتناقله رواة عن
رواة ، حتى رحلت به الوظيفة إلى سوهاج ، ثم إلى المنيا ، ثم استقرت
به حيناً فى المنصورة .

والمنصورة أرض طيبة : تنبت الشعر والجمال ، والحب والخيال .
وهى التى أنجبت للبلد عشرات من أعلام الشعر والأدب والمسرح
والغناء والفنون عامة .

وفى المنصورة ، عرفت الشاعر إبراهيم ناجى ، إذ كنت يومئذ
طالباً بالمدرسة الثانوية وكان لى زميل أثير ، هو الشاعر م . ع .
الهمشرى ، وقد كان شاعراً موهوباً مأمولاً لمستقبل ضخم ، لولا
أن عاجلته المنية وهو فى أوج شبابه .

كنا نخرج أنا والهمشرى من المدرسة ، فلتلقى بشاعرين يكبراننا ،
وكان المستقبل يتهاى لهما يومئذ ، هما إبراهيم ناجى الطبيب ، وعلى محمود

طه المهندس ، فكنا نجلس نحن الأربعة على شاطئ النيل ، نقضى أجمل ليالى العمر فى حديث الأدب والشعر والجمال .

كانت هذه الصحبة مدرسة جديدة فى الشعر ، تقاربت خطوطها فى ذلك العهد إلى حد أن اختلط شعرنا على الناس فى كثير من الأحيان فنسب إلى غير صاحبه ، وإلى حد أن أحداً منا نحن الأربعة لم يكن يعرف من التلميذ ومن الأستاذ ، فقد أفاد كل منا بصحبة الآخرين .

وكان لنا أصحاب ثلاثة من شعراء الشباب فى الأدب الإنجليزى ، هم شلى وكيثس وورد زورث ، نقرأهم كثيراً ، ونحس بما بيننا وبينهم من أواصر الشعر وشائج الشباب وعبادة الجمال وروح الثورة على القديم . وفى المنصورة ، نظم ناجى قصيدة « صخرة الملتقى » وبعث بها إلى مجلة « السياسة الأسبوعية » وهى يومئذ أعظم صحيفة أسبوعية أدبية ، فاحتفت بها الصحيفة ، ونشرتها فى مكان كريم .

وبدأنا نفعل ما فعل ناجى ، بعد أن كنا نشفق من إرسال شعرنا إلى الصحف مخافة الإهمال ، فأرسلناه ، وبدأنا نأخذ طريقنا إلى الناس .

* * *

وانتهت أيام المنصورة الحلوة

وزحفنا نحن الأربعة على القاهرة فى وقت واحد .. ناجى إلى وظيفته بالقسم الطبى بمصلحة السكك الحديدية ، والمهندس إلى وظيفته بوزارة الأشغال ، والهمشرى إلى كلية الآداب ، وأنا إلى كلية التجارة .

ومنذ ذلك الحين لم نفرق - أنا وناجى - إلى أن لى وجه ربه ، إلا
ليالى معدودات .

عاد ناجى إلى القاهرة ومر بديار أحبابه الذين تغيرت مقاديرهم ،
فرآها تصفر فيها الريح وتكسوها خيوط العناكب ، فنظم قصيدته
« العودة » التى تعد أروع قصائده ، ومطلعها :

هذه الكعبة كنا طائفها والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء ؟

دار أحلامى وحى ، لقيتنا فى جمود مثلما تلقى الحديد
أنكرتنا ، وهى كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

وكان ناجى - بعد قصيدة العودة - قد أبى إلا يغير قدره كما
تغيرت أقدار أحبابه ، فودع أيام العزوبة ، وخطب الآنسة « سامية »
كريمة اللواء محمد سامى ، أمين محافظ القاهرة يومئذ .

ولولا أن هذه السيدة كانت واسعة الأفق ، ما استطاع ناجى أن
يواصل رسالته كشاعر ، وهو يطالعها كل يوم بقصائد مطولات عن
حبه القديم ، ثم يحتم أمسياته كل ليلة بجديد من غزلياته ، مرة فى
« راقصة » وأخرى فى « سمراء المحفل » وثالثة فى « هند » ورابعة فى
« سونيا » وخامسة فى « زازا » . . . إلخ .

ولم يعقب ناجى ولداً ، وإنما أعقب ثلاث بنيات :

وكانت الوسطى « ضوحية » أقرب الثلاث إلى قلبه . كان يفتح لها مغاليق قلبه ، ويسرها النجوى ، ويختصها دون شقيقتها بأكثر من قصيدة ، مما تجدد في دواوينه .

• • •

تلفتت مجتمعات الأدب إلى ناجى منذ عودته من المنصورة ، وتلفتته مجامعها مهلة محتفية ، فأصبح من المقربين إلى أمير الشعراء .

وحينما قامت جمعية « أبوللو » في سنة ١٩٣٢ ، ورئيسها يومئذ أمير الشعراء ، وأمينها العام الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، كان ناجى فى الطليعة من رواد هذه الجماعة ، ووقع عليه الاختيار ليكون وكيلها ، وكنا نحن : على محمود طه وزكى مبارك والصيرفى والهmersى ونختار الوكيل ، أعضاء فى مجلس الإدارة .

وفى سنة ١٩٣٤ ، ظهر أول ديوان لناجى « وراء الغمام » .

الغمام . . . الذى يتطلع ناجى إلى الأرض فيراه يحجب حقائق الناس ، فتلك راقصة تلهو وتمرح وكأنها أسعد أهل الأرض ، فإذا انقشع عنها الغمام ، تجلت وراءه مأساة دامية ، يصورها لنا فى قصيدته « قلب راقصة » ويقول فيها :

لا تكتفى فى الصدر أسراراً وتحلى كيف الأسى شاء
أنا لا أرى رجساً ولا عاراً لكن أرى امرأة وبأساء

للغمام . . . الذى يصعد ناجى بعينه إلى السماء ، فيراه يحجب حقائق السماء ، فيسمو إليها بنحاله قائلاً فى قصيدته « صلاة الحب » :

سموت ودق إحساسى وجزت عوالم البشر
نسيت إساءة الناس غفرت خطيئة القدر

* * *

ويذهب ناجى عقب صدور هذا الديوان ، إلى لندن فى مهمة علمية ، وتقع فى يده صحف القاهرة ، فإذا هى زاخرة بمركة حول قيمة شعره ، وإذا بعض أصدقائه ، الذين طالما طربوا له وصفقوا ، يلحونه ويصغرون مكانته ... وإذا كاتب جهير ممن يوجهون الرأى الأدبى فى البلد ، يكتب عن قصائد « وراء الغمام » فيقول : « إنها أشعار حسنة ، ولكنها أشعار صالونات ، لا تتحمل أن تخرج إلى الخلاء فياخذها البرد من جوانبها » .

هذه الحملة بالذات كانت أكثر ما هز كيان ناجى الرقيق هزاً عنيفاً .

كان يخيل له أن صدور ديوانه هذا سيكون وثيقة كبيرة له فى طريق المجد ، يسجلها له الكاتبون ، ونسى أن المجد هو ما يسجله هو لنفسه ، لا ما يسجله له الكاتبون . ولكن جحود الأصدقاء الذين هاجموا فى غيبته هد كيانه ، وكلمة الكاتب الجهير تركت جرحاً عميقاً فى أعماقه ، فراح يردد هذا البيت :

هى محنة وزمان ضيق وتمخضت عن لا صديق

وانبرت جماعة أبولو تدافع عنه على صفحات مجلتها ، وعلى صفحات جميع المجلات ، ولكن كل هذا لم يخفف عن نفسه أحمالها .

وبينما هو سارح في شوارع لندن ، شارد الفكر تائه النظرات ،
 دهمته سيارة أدخلت عظمة الساق في الحوض من فتحته فكسرتة .
 ونقل ناجى إلى مستشفى سانت جورج ، وتجمع عليه فوق آثار
 الصدمة شدة داء السكر الذى كان يشكو منه ، وبرد لندن القارس ،
 كل هذا فوق المحنة النفسية التى كان يعانها من ناقديه .
 ورقد أشهراً في لندن ، وأجريت له جراحة خطيرة كللت بالنجاح
 وخرج من المستشفى يحرر ساقيه على عكازين ، ولكن المראה التى فى
 نفسه عاشت معه بعد ذلك حقبة طويلة من الزمن ، حتى بعد أن
 ألتى العكازين .

وأدركت به الباخرة وهو فى طريق العودة ، مدينة البندقية ، فقال
 والنشوة فى عينيه ، والمرارة فى أعماقه :

يارب ما أعجب هذى البلاد لاليل فيها ، كل ليل صباح
 وكل وجه فى حماها ضباد ومصر لا تنبت إلا الجراح
 ثم أشرفت به الباخرة على شواطئ مصر ، فصاح يقول :
 هتفت وقد بدت مصر لعيني رفاقي ، تلك مصر يا رفاقي
 خرجت من البلاد أجرسقمي وعدت إلى البلاد أجر ساق
 أتدفعتي وقد هاضت جناحي وتجذبني وقد شدت وثاقي ؟
 على أن القدر تلطف بالشاعر ، فاعتذلت ساقاه ، ولم تترك صدمة
 لندن أثراً فى مشيته ، وإن كانت قد تركت آثاراً فى أعماق نفسه .

عاد ناجي إلى مصر ، وقد كفر بكثير من القيم التي طالما آمن بها ،
وفي طليعتها قيمة الصداقة ، وقيمة الشعر .

لقد هاله أن يجد بين أصحابه شاعراً يتنكر له بعد صحبة طويلة .
فهجاه وهو الذي عاش يكاد لا يعرف معنى كلمة الهجاء .

هجاه هجاء تجرد فيه لأول مرة من نزعة الإنسانية العميقة ، حتى
إنه تمنى له الموت : واختتم أبيات القصيدة بقوله كما قال قبصر لبروتس :
حتى أنت :

قال :

أيها الحى ، وما ضر الورى لو كنت متاً ؟
أو شعر ذاك ، لا بل حجر ينحت نحنا
تلقم الناس وزميرهم به فوقاً وتحتنا
صحت من يأسى لما بركيك الشعر صحتنا
آه يا قاتل يا سفاك . . حتى أنت . . حتى ؟

ثم تنكر ناجي للشعر ، وأقسم ألا يقوله أبداً .

ولكن . . . هل يستطيع أن يخاصم قلمه ؟

لا . . . وإنما اتجه به حيناً إلى القصة المترجمة ، ثم المؤلفة . على أنه
لم يصل في هذا المجال إلى شيء مما وصل إليه في مجال الشعر .

وظهر كتابه « مدينة الأحلام » وفيه القصة التي أسلفت الإشارة إليها .

وقال في مقدمة « مدينة الأحلام » :

« وداعاً أيها الشعر . . . »

«وداعاً أيها الفن . . .

«وداعاً أيها الفكر . . .»

وكأنما القصة ليست من الفن

وكأنما الدراسات النفسية التي اتجه إليها بعد ذلك ليست من الفكر .

وهنا . . . نسجل فضلاً للأستاذ الدكتور طه حسين ، الذي قسا على شعر ناجي من قبل ، وقد هاله أن يطلق ناجي الشعر ، فأراد أن يحرضه على العودة إليه تحريضاً جميلاً ، فأنشأ في صحيفة «الوادي» فصلاً مشوقاً قال فيه :

«إني لم أحزن حين رأيت الدكتور ناجي يعلن زهده في الشعر ، لأنني قدرت أن الدكتور ناجي إن كان شاعراً حقاً ، فسيعود إلى الشعر إن راضياً وإن كارهاً ، سواء ألححت عليه في النقد أو رفقت به ، وإن لم يكن شاعراً فليس على الشعر بأس في أن ينصرف عنه ويزهد فيه .»

وكان لهذا التحريض أثره عند ناجي ، فأنحلت عقده النفسية واحدة وراء الأخرى ، وعاد إلى صفائه وأصدقائه وأناشيده الخالدة .

* * *

عاد ناجي يغرد بأجمل مما كان يغرد .

وعاد إلى حياة الليل ، لأنه كان يشق الليل . كان أقل النوم يشبعه ، وأقل الطعام يكفيه ، وهو في الحب كذلك ، أقل الرضا يرضيه . وكان معنا في مدرسة الليل هذه كثير من أبناء المدرسة الحديثة — الحديثة



يومئذ - أذكر منهم محمود تيمور - وتوفيق الحكيم ، وأحمد رامى ، وإبراهيم المصرى ، والدكتور حسين فوزى ، ومحمود طاهر لاشين ، وعلى أدهم وغيرهم .
وقد شهدت هذه الجلسات أعنف معارك الأدب التى خرجت من المقهى أو الملهى إلى وجوه الصحف ، كما شهدت أبدع الأشعار وأمتع الأفكار .

وأذكر أن واحداً ممن يعيشون على هامش الأدب ، كان يجالسنا كل ليلة ويسمع ما يقال ويسجله أولاً بأول ، كما يسجل ما يغتاب به بعضنا بعضاً من نقد ، فالبث أن اجتمع له من كل ذلك كتاب كامل نشره ونسب ما فيه إلى نفسه ، وعد يومئذ فى الأدباء ، بعد أن أثار كتابه هذا ، الذى لا فضل له فيه إلا فضل المغافلة ، ضجة فى الأوساط الأدبية .

• • •

كانت الفترة التى هجر فيها ناجى الشعر غير مجدية ، فقد راح يتلهى بترجمة القصة وتأليفها كما أسلفنا القول ، كما راح يترجم أهازيج شكسبير وشعر بودلير . ويلقى المحاضرات عن فرويد وغيره من علماء النفس ، ويترجم المسرحيات ، ومن أشهر ما ترجم « الجريمة والعقاب » لدستوفسكى ، كما راح يكتب للإذاعة ، ويقرأ فى أدب فجر الإسلام ، والأدب الروسى ، ويؤلف فى الطب ، ويصدر مجلة « حكيم البيت » التى لم تستطع أن تخلص من روح الأديب الشاعر الفنان... ويصنع كل شئ إلا أن ينظم الشعر .

إلى أن مرت المحنة ، ومرت معها محنة أخرى كان يعانيها من زملائه في العمل ، وهذه هي الأخرى وجدت طريقها إلى الانفراج حين ترك مصلحة السكك الحديدية ، وعين رئيساً للقسم الطبي بوزارة الأوقاف ، وهذه هي الفترة الوحيدة في حياة الشاعر ، التي كثر فيها شعره في المدائح والمجاملات ردّاً للجميل ، كما يتبين للقارئ عند مراجعته لديوانه الثاني « ليالى القاهرة » الذي صدر سنة ١٩٥١ .

وطابت أيامه في وزارة الأوقاف ، في عهد الوزير الذي جاء به إلى هذا المنصب ، المرحوم عبدالمهادى الجندى ، ثم في عهد الوزيرين الأديبين إبراهيم دسوقي وأباظة وعبد الحميد عبد الحق .

ثم ذهب المقدرون لأدبه ، وجاء غيرهم ، ودارت حوله الدسائس من زملائه وتكاثر على الحفاظ ثم اتهمه الشائنون بأنه غير منتج ، وأنه منصرف للشعر والأدب عن الطب ، وانتهى الأمر بإخراجه من وظيفته وهو في الخامسة والخمسين من عمره فيما سمي بالتطهير يومئذ .

وكانت الصدمة قاسية عليه من الجانحين النفسى والمالى .

صحيح أن أحمد ناجى كان عصمياً بدأ من الصغر ، ولكن ولده إبراهيم ولد في ظل النعمة في قصر فيه عربة وجياد وإماء وخدم وحشم . وتعود الشاعر النعمة طول حياته .

كان يكسب كثيراً من عيادته ، ولا يبقى على شيء مما يكسبه .

فلما جاءت هذه الصدمة كان صفر اليدين إلا من معاش محدود .

أما دخل عيادته ، فقد أخذ ينفض عنه كما انفضت غنة الدنيا ،

إلا من الفقراء الذين كانوا لا يؤدون له على العلاج أجراً .
وينبغي لي ، قبل أن أترك سيرة ناجي ، أن أسجل أنه كان طبيباً
ناهماً ، ولكن حقه من حوله جنى عليه ، وهكذا عرف ناجي الحرمان
لأول مرة في حياته ، فاشتد عليه داء السكر ، وألحت عليه ذات الرئة ،
وراح يذوب سريعاً حتى انتهت قصة حياته في يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٥٣ ،
ورقد إلى جوار جده الشيخ عبد الله الشرقاوي بمسجده بجوار الحسين .

ونزل الستار على المأساة التي توقعها قائلها :

حان الوداع ، ففيم تنتظر ؟

نزل الستار وأقفر العمر



شاعر الجبل الأخضر

أبو القاسم الشابي

هذا شاعر ساحر . . .

عرفه العالم العربي لأول مرة في عام ١٩٣٣ ، حين بعث مجلة أبولتو -
التي كانت تصدر عن جماعة أبولتو ، متخصصة في الشعر ودراساته -
بقصيدة عنوانها « صلوات في هيكل الحب » .

فما إن طلعت هذه القصيدة على الناس ، حتى بهرتهم ، وتلفت
إليها أدباء العالم العربي وشعراؤه ونقادها ، وتساءلوا جميعاً : من يكون هذا
الشاعر ؟ وأين موطنه ؟ وما عمره ؟ وأين كانت هذه الطاقة الشعرية
الضخمة مستخفية على عيون الأدب حتى اليوم ؟

وفي الحق أن القصيدة كانت ثورة في تاريخ الشعر العربي الحديث ،
وتاريخاً خليقاً بأن يؤرخ به للمدرسة الجديدة في أدب العاطفة المحلقة .
فإن أردت أن تعرف ماهية هذه المدرسة ، فإني أترك أبا القاسم
يحدثك عنها في بحث له عن الشعر ، عنوانه « الأدب العربي في العصر
الحاضر » .

يقول أبو القاسم :

« ليس لنا أن نطالب الشاعر في شعره بغير الحياة . وإذا جاز لنا
أن نطالبه بأكثر من هذا . فلنطالبه بأن تكون هذه الحياة رفيعة سلمية
تتكافأ مع ما للشعر من قدسية الفن وجلاله . ففي الحياة كثير من
الحماقات والدنايا ، يتعالى الفن عن التدلى إليها من سمائه العالية .

« فإذا قرأنا شاعراً ، وجدنا فيه إنساناً من لحم ودم ، يحيا ويتنفس ، ويشعر ويفكر ، ويجاوبنا بالعطف والحس والخيال ، وينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العالم ومحمراته — إذا وجدنا هذا الشاعر ، فلنقرأه في ثقة وإيمان ، فإنه الشاعر حقاً ! »

* * *

هذا هو رأى أبى القاسم فى الشعر والشاعر ، وهذه هى خطوط مدرسته .
فلنتظر إلى أى مدى توأمت هذه الخطوط قصيدته التى حدثكم عنها : « صلوات فى هيكल الحب » التى أقتطف من مطالعها هذه الأبيات :
عذبة أنت .. كالطفولة .. كالأحلام .. كاللحن .. كالصباح الجليد
كالسما الضحوك ... كالليلة القمرء .. كالورد .. كابتناس الوليد
يا لها من وداعة وجمال . . وشباب منعم أملسود
يا لها من طهارة تبعث التقديس فى مهجه الشقى العنيد
خطوات سكرانة بالأناشيد . . وصوت كرجع ناى بعيد
وقسوم يكاد يهتف بالألحان فى كل وقفة وقعود
كل شئ موقع فىك حتى لفنة الجيد واهتزاز النهود

* * *

هذه — فيما نعرف — أول قصيدة عرفه بها الناس فى الشرق العربى ، سنة ١٩٣٣ . أفلا يفجعكم أن أقول لكم بعد ذلك إن عاماً واحداً قد مر على نشر هذه القصيدة بمجلة « أبولو » ... وإذا برسالة حزينة قادمة

من تونس - وطن هذا الشاعر - تقول إن أبا القاسم قد مات وهو في الخامسة والعشرين من عمره ؟!

كيف مات ؟

إليك هذه العجالة عن حياته :

ولد أبو القاسم في يوم من أيام الربيع ، من عام ١٩٠٩ . ببلدة « توزر » بتونس الخضراء .

ولانعرف من أمر طفولته إلا أنه نشأ كما ينشأ كل تونسي ، فحفظ القرآن الكريم ، وتعلم مبادئ العربية . ولا بلغ أشده بعث به أهله إلى العاصمة التونسية ، فالتحق بمعهد الزيتونة سنة ١٩٢١ ، ونال إجازته سنة ١٩٢٧ ، وانخرط بعد ذلك في كلية الحقوق التونسية ، فنال إجازتها سنة ١٩٢٩ .

وقضى الآونة بين ذلك العام ، حتى اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٩٣٤ ، في مكان يقال له « باب حومة العلوج » ... ويومئذ جاء أهله إليه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . ليأخذوه في سيارة إلى مسقط رأسه في بلدة توزر ، ولكن روح أبي القاسم أصرت على أن تلقى ربه في المكان الذي أظلم عمرها القصير عند باب الحومة .

* * *

وماذا كان من أمر أبي القاسم خلال هذه السنوات القصصار التي عاشها في شبابه ؟

من أسف أن ما وقعنا عليه من المعلومات عن هذه الفترة من حياة

الشاعر ليس بالكثير . ولكنه كاف كل الكفاية لإرشادنا إلى المؤثرات الكبيرة في حياته وشعره .

من ذلك ، أنه قيل إن أبا القاسم أحب حباً عنيفاً عفيفاً ، وكان — كما أدركنا من قصيدته التي سقت ألياناً منها — لا ينظر إلى محبوبته كما ينظر غيره من الرجال إلى محبوباتهم

لم يكن يتعمق في أنوثتها ويستلهم جنسها ، وإنما كان يراها قصيدة أو أغنية ، أو هيكلًا للعبادة ، أو محرّاباً للنور والطهر ، أو كعبة لسدنة الفن !

قال أديب تونسى : « إن حباً جارفاً باكر أبا القاسم ، فغمره وساقه في موكب حافل من العواطف الجاحقة والأخيلة الواسعة . ولكن للموت اختطف حبيبته ، فبكى أبو القاسم ، ورتل أناشيده العاطفية مرجعاً كل شيء في حياته إلى الحب »

• • •

أما المؤثر الثاني فهو أن أبا القاسم كان مجدداً جريئاً صاحب دعوة تقدمية كبيرة في الأدب الحديث .

وقد عكف على نشر آرائه في تونس ، في صحفها ومجلات ، وهي يومئذ بيئة شديدة المحافظة والتعلق بالقديم ، في مجال الأدب وفي كل مجال من مجالات الفكر والحياة ، فلقى حرباً شعواء ، ولقى عنفاً كثيراً ، ولقى حفاظاً وأحقاداً ترى من كل فج ، حتى امتلأ قلبه — كما قال — باليأس من الشعب الذي يعيش فيه ، هامساً لنفسه « لاكرامة لنبي

في وطنه » ، راثياً لهذا الشعب في قصيدة عنوانها « النبي المجهول » وفيها يقول :

أيها الشعب ليتني كنت خطاباً فأهوى على الجنوع بفأسي
 أنت روح غبية تكره النور وتقضي الدهور في ليل ملمس
 أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حوالبك دون مس وجس
 في صباح الحياة ضمتخت أكوإني وأترعتها بخمرة نفسي
 ثم قدمتها إليك فأهرقت رحيقي ودمت يا شعب كأسي
 فتأملت ، ثم كفكفت آلامي ، وأسكت من شعوري وحسي
 ثم نصذت من أزاهير قلبي باقة لم يمسه أي إنسي
 ثم قدمتها إليك ، فزقت ورودي ودستها أي دوس
 ثم ألبستني من الحزن ثوباً ، وبشوك الصخور توجت رأسي
 هأنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحدي بيأسي
 ثم أنساك ما استطعت ، فما أنت بأهل لحرق ولكأسي
 سوف أتلو على الطيور أناشيدى وأفضي لها بأحزان نفسي
 ثم أقضي هناك في ظلمة الليل وأمضي عن الوجود ببؤسي
 وهكذا فعل أبو القاسم ...

لقد صدق وعده وهجر الناس ، وذهب إلى الغاب ، وإلى الجبال
 والوإح ، وعاش في المنى الأخضر الذي اختاره لنفسه ، يطل على البحر
 المتوسط ، ويرعى الأغنام ، وينفخ في الناي ، وينظم الشعر ، بعد أن
 يشس من الناس إذ شنوا عليه حرباً عواناً وهو بسبيل رسالته المستحدثة

في الأدب ، وهو إلى جانب هذا يبشر بين قومه بالحرية ، ويحرضهم على الثورة على الاستعمار والدود عن الحياض ، هاتفاً بهم في قصيدته المشهورة « إرادة الشعب » التي يحفظ الملايين من العرب مطلعها بدون أن يعرف أكثرهم صاحبه :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القادر
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر

* * *

وهكذا اجتمع على أبي القاسم حب كبير (وإن كنا لا نجزم فيه بموت الحبيبة) وحرب من الجهاديين ، واضطهاد من المستعمرين ... وعلى نيران هذه الحروب الثلاثة ، احترق أبو القاسم إذ أصابه تضخم في القلب ، فأسلم الروح وهو يغنى في فرحة بالخلاص :

الوداع	الوداع	يا جبال الهموم
يا ضباب الأمسى	يا فجاج الجحيم	
قد جرى زورقي	في الخضم العظيم	
ونشرت القلاع	فالوداع الوداع	

شاعر الشباب

أحمد رامى

فى أغسطس سنة ١٨٨٢ خرج أحمد راحى إلى النور ، فى بيت عتيق بحى الناصرية بالقاهرة . وكان أبوه لا يزال يومئذ طالباً بمدرسة الطب .

ولد أحمد والنعم ملء أذنيه ، فهو يذكر فيما يذكر من خيالات الطفولة الأولى . أن جماعة من أهل الفن والطرب ، كانت تلتقى دائماً فى مندرة بيت أبيه ، وأن أباه كان مشغولاً بالفن .

فلما تخرج الأيب فى مدرسة الطب ، اختاره الخديو عباس الثانى ليكون طبيباً لجزيرة طاشيوز ، وهى جزيرة صغيرة على مقربة من مدينة « قولة » مسقط رأس محمد على (وكانت يومئذ من أعمال تركيا ، وهى الآن من أعمال اليونان) وكانت هذه الجزيرة ملكاً خاصاً للخديو عباس الثانى .

وإلى هذه الجزيرة ، ذهب أحمد مع أبيه ، وقضى بها عامين كاملين . ذهب وهو فى السابعة ، وعاد وهو فى التاسعة ، وتلك هى سن التفتح فى أخيلة الطفولة .

وهكذا تفتح خيال الشاعر على غابات اللوز والنقل والفاكهة ، والبحر والموج والشاطئ ، وكانت ملاعبه هناك بين مروج الزجس الكثيفة ... هذه المروج التى كانت من قبله ملاعب لهومير وغيره من شعراء اليونان .

وعاد راي من هذا الفردوس إلى القاهرة .

عاد ، وقد وعى التركية واليونانية ، وهما لغتا أهل الجزيرة ، وما يزال يعي طرفاً منهما حتى اليوم .

عاد من الفردوس إلى اليباب ، فقد ترك أبويه هناك ، وأقام عند بعض أهله في بيت يقع في حصن المقابر ، بحى الإمام الشافعى ، فاستوحشت نفسه ، وانطوت على هم وأسى عميقين .

والتحق آنذاك بالمدرسة المحمدية الابتدائية بحى السيوفية .

فلما عاد أبوه من طاشيوز ، عادت الأسرة إلى بيتها العتيق بحى الناصرية . بيد أن المقام لم يطل بأبيه ، الذى التحق بالجيش ، وسافر إلى السودان وتركه في رعاية جده وهو شيخ في السبعين ، يسكن حى الحنفى (القريب من الناصرية) فعادت أحمد الوحشة بعد إيناس ، لولا أن خففت حديثها على نفسه نافذة في غرفته . كان يطل منها على نخوم مسجد الحنفى ، ليستمع طول الليل إلى مجامع المتصوفة يتلون أورادهم ويرددون أنبالاتهم واستغاثاتهم للمولى عز وجل في نغم جميل .

وكان له قريب من بيت الرافعى ، وهو بيت علم وأدب وثقافة ووطنية . وكانت لقريبه هذا مكتبة عامرة ، أنس إليها أحمد ، فكان يقضى بها جل وقته . وكان أول كتاب سقط في يده فقرأه وتشبع به وحفظه عن ظهر قلب ، هو كتاب « مسامرة الحبيب في الغزل والنسيب » وكله مختارات من شعر العشاق الغزلين .

هذا الكتاب لعب دوره في حياة أحمد وهو صبي ، فقد قرر مصيره إلى الأبد .

ثم قرأ في هذه المكتبة .. قرأ كثيراً ... وكان قد أدرك مرحلة الدراسة الثانوية بالمدرسة الخديوية ، وتعلقت نفسه بحب الأدب ، وكانت هناك جمعية أدبية على مقربة مما يقيم بجى السيدة زينب ، اسمها « جمعية النشأة الحديثة » .

وكان فيها رواق للأدب مساء كل خميس ، تحضره جماعة من فحول ذلك الزمان ، منهم لطفي جمعة ، وإمام العبد ، وصادق غنبر ، ومحمود أبو العيون ، وطنطاوى جوهرى ، وغيرهم .

وتوسم المرحوم صادق غنبر في أحمد الصغير خيراً ، وسمعه يتلو الشعر تلاوة طيبة ، فكلفه قراءة بعض الشعر القديم في هذا الرواق الأسبوعي .

وواتته في هذا الرواق فرصة سانحة ، قرأ فيها أول قصيدة من نظمه ، وكان يومئذ في الخامسة عشرة .

* * *

تخرج رامى في مدرسة المعلمين العليا ، سنة ١٩١٤ ، وعين مدرساً بمدرسة القاهرة/ الأهلية بالسيدة زينب ، وكان من زملائه في التدريس بها ، الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد رحمه الله .

وبعد عامين ، عين بمدرسة القربية الأميرية ، يدرس للنشأة اللغة الإنجليزية والجغرافيا والترجمة .

وفي هذه الآونة - كان ذلك سنة ١٩١٨ - أصدر ديوانه الأول ،
أو على الأصح ، الطبعة الأولى من ديوانه ، لأن لراى طريقة فريدة
في نشر شعره ، ذلك أنه يراجع ديوانه في كل حقبة من عمره ، فيتخير منه
وينخل ويضيف ، ويعيد طبعه من جديد على الصورة التي ترضيه .

* * *

كان صدور ديوانه حدثاً أدبياً في ذلك العهد ، فقد طالع قراء
العربية بلون جديد في الشعر ، اختلفت فيه المدرستان القديمة والحديثة
يومئذ ، هذه تؤيده وتلك تلحاه ، هذه المعركة التي دامت في حقل
الشعر الحديث إلى عهد قريب .

وضاق راي بالتدريس ذرعاً ، فعاد مرة أخرى إلى رحاب مدرسة
المعلمين العليا حيث عين أميناً للمكتبة ، فاطمأنت نفسه وانصرف إلى حياة
علمية خالصة ، وانكب على ما في المكتبة من كتب في آداب العالم
الثلاثة ، من عربى وفرنسى وإنجليزى .

وهكذا ظل حتى سافر في بعثة إلى باريس لدراسة اللغات الشرقية
وفن المكتبات سنة ١٩٢٣ .

وفي باريس قضى عامين هما أسعد ذكريات شبابه ، في جامعة
السوربون ، وكأنه كان هناك على موعد مع شاعر التاريخ عمر الخيام
كما سنفصل فيما بعد .

وعاد راي بعد العامين إلى القاهرة حيث عين بدار الكتب المصرية
وظل يتدرج في مناصبها ثمانية وعشرين عاماً ، حتى أصبح وكيلاً لها ،

في نطاق الشعبية . بيد أن الناقد لا يستطيع أن يتناول الناحية الشعبية في رأى إلا إذا درس نفسية هذا الشاعر عن طريق شعره .

تفاعلت في نفس رأى ، منذ طفولته إلى آونة نضجه ، عوامل عدة ، أبهرها تلك المروج الفيحاء من النرجس ، التي تفتح عليها خياله في جزيرة طاشيوز ، ثم تلك الوحشة التي ألت به بين القبور . ثم تلك الصوفية التي عاشرت روحه في حى الحنفى ، ثم ذلك الكتاب الذى كان أول ما قرأ « مسامرات الحبيب في الغزل والنسيب » .. ثم صحبته لشاعر التاريخ عمر الخيام . ثم كلفه بأم كلثوم .

هذه فيما أرى ، هى العناصر التي اشتركت في تكوين هذا الشاعر وجعلته مجموعة من الانفعالات العاطفية التي تسيل تشوقاً وتصوفاً وعدوبة ورقة .

وقد ثارت في وقت من الأوقات حملة من حملات النقد تقسم الأدب إلى بابين : باب القوة وباب الضعف . وقيل يومئذ إن شعر رأى بما فيه من لطفة على الحب ، وما يزخر به من دموع وتأوهات ، ينهض نموذجاً لأدب الضعف .

وهذه قولة سخيقة ، لو أننا أخذنا بها لجعلنا أخلد الشعر العاطفى في التاريخ من أدب الضعف . وإنى لأرى أن الضعف ليس هو الذى يمتلئ بالعاطفة ويلتهب بالحرقه على الحبيب ، وإنما أدب الضعف هو ذلك الذى يسوق اللفظة السقيمة أو المعنى الواهى أو الخيال الممجوج . وإنى لأرى أن أدب القوة ، ليس هو الذى يتحدث عن الجهاد

إنها تغنى قصيدة له هو بالذات ، مطلعها :
 الصبّ تفضحه عيونه وتم عن وجد شؤونه
 وكان اللحن لخير من لحن القصائد، المرحوم الشيخ أبو العلا محمد .
 ورجع رامى من عندها فى تلك الليلة مأخوذاً بحلاوة الصوت وبراعة
 الأداء ، ولم يمْ ليلتها إلى الصباح .. فقد أزمع أمراً .
 لقد عرف أنه وجد الأداة الكفيلة بتحقيق الرسالة الكبرى ...
 الانقلاب العظيم فى الأغاني المصرية .

وكان لم يزل إلى ذلك اليوم . ولكنه وجد نفسه مسوقاً إلى أم كلثوم ،
 يصلح لها طقاطيقها القديمة ويهذب ألفاظها .

ثم زجل ... زجل فى أول مقطوعة نظمها خصيصاً لها وهى :
 خايف يكون حبك لى شفقة على
 وانتى اللى فى الدنيا ديه ضى عيسى
 ونشرت هذه الأغرودة فى أسطوانة طبعت سنة ١٩٢٥ ، فكانت
 حدثاً فى الغناء المصرى .

واتصلت حياة رامى منذ يومئذ بحياة أم كلثوم .
 وقد شهد الزجل الغنائى لأول مرة فى تاريخ الفن المصرى ، بحور
 الشعر تستخدم فيه جميعاً ، ومعانى الشعر تؤمم ، وأخيلة الشعر تعمم ،
 والألفاظ الشاعرية الرقيقة تنزل إلى ميدان الزجل الغنائى لأول مرة على
 يد رامى .

شاعر مکتة النخل

أحمد زکی أبوشادی

أبولو ، مرحباً بك يا أبولو
فإنك من عكاظ الشعر ظل
عكاظ وأنت للبلغاء سوق
على جنباتها رحلوا وحلوا
وينبوع من الإنشاد صاف

صلى المتأدين به يمل
هذه الأبيات الثلاثة هي مطلع القصيدة الرائعة التي نظمها أمير
الشعراء شوقي في تحية جمعية «أبولو»... أول جمعية أنشئت لخدمة
الشعر العربي الحديث سنة ١٩٣١ .

وكان منشئها هو الشاعر الذي نعتة الأنباء من أمريكا في سطور
قليلة لم تجد صداها إلا عند نفر قليل من ذاكرى فضل هذا الرجل :
أحمد زكى أبو شادى .

وقد نشرت هذه التحية الشوقية بالعدد الأول من مجلة «أبولو»
التي أصدرها أبو شادى يومئذ لتتطرق بلسان الجمعية ، وتتظم خرائد
الشعراء المعروفين ، وتكشف عن المواهب المغمورة في مصر والسودان
والشرق والمغرب العربيين والمهجر الأمريكى ، وتولى النقد الأدبى
عنايتها بأسلوب علمى مستحدث .

وقد استطاعت هذه الجمعية التي أسندت رياستها إلى أمير الشعراء

ثم من بعده إلى شاعر الأقطار العربية خليل مطران، أن تستحدث ثورة في عالم النقد، وأن تنشئ مدرسة جديدة في الشعر العربي الحديث، تسمو برسالة الشعر عن أن يكون أداة للمدح أو للقدح أو المناسبات، وتجرده من التقليد، وتنادى بوحدة القصيد، وتحلق فوق الذرى العالمية.

وفي هذه المدرسة، لمعت أسماء خالدة في سماء الشعر العربي، كإبراهيم ناجي وعلي محمود طه وم. ع. الممشرى وأبو القاسم الشابي والبيجاني يوسف بشير، من الراحلين، وعشرات غيرهم من الأحياء. كما لمعت في عالم النقد أسماء أخرى أنخص بالذكر منها الدكتور رمزي مفتاح الذي أثار معركة من أكبر معارك الأدب في ذلك الجيل بكتابه «رسائل النقد».. والأديب العراقي الراحل الدكتور مصطفى جواد.. وغيرهما.

* * *

والشاعر أبو شادي، هو ابن المجاهد الكبير المغفور له محمد بك أبو شادي، الذي كان من أساطين الوفد في عهد سعد، ومن زعماء الحركة الوطنية والثورة المصرية سنة ١٩١٩، وكان إلى جانب هذا شيخ الحامين في عصره.

وفي حياة شاعرنا كل ما نراه في شعره من هيام بالجمال. كان كل جمال يلهب شاعريته. ولكن القصتين اللتين عاشتا في قلبه إلى أن لقي وجهه ربه، هما اللتان أرويهما هنا.

ولدت القصة الأولى في يوم يتمه ، أو بعد ذلك بقليل ، حين ودعت أمه الدنيا ، فتزوج أبوه سيدة من بيت معروف . وكانت لها ابنة من زوج سابق .

كان الشاعر يومئذ في ميعة الصبا ، طالباً بمدرسة الطب . وذاق لوعة فقد أمه ، وضاعفت اللوعة قسوة زوجة أبيه عليه . ولكن بارقة من الحنان هدهدت قلبه ، ومسحت دمه ... هي تلك الصغيرة التي أشرقت على حياته في البيت ... ابنة زوج أبيه . كانت طفلة شاعرية حاملة ، إذا تحدث إليها ، أصغت إليه واستجابت له ، واستلهمها فألهمته .

وأترك لك أيها القارئ أن تتصور قسوة الصراع في هذا البيت ، وفي هذه النفس ، وأنت تتأمل صبيّاً شاعر الروح ، في حيرته بين قسوة هذه السيدة عليه ، وحنان ابنتها عليه ! أو أن تتأمل ما يعتمل في نفس الصبية الحلوة ، وهي تحب أمها ، وتحب شاعرها ، ولكنها حائرة بينهما إذ هما في هذا الصراع .

وتزداد قسوة الموقف ، حين تعلم زوج أبيه بأمر هذه العاطفة المشبوبة بين الصغيرين ، فتثور ثورة طاغية ، وتصر على ألا يبقى الصغير في البيت .

ويحار أبوه ، بين عاطفته نحو ولده وبين إرضاء زوجه فيحاول أن يحول دون اطراد هذه العاطفة ، على غير طائل ، فلا يجد مخرجاً من الموقف إلا بأن يوفق بين رغبة زوجه وحرصه على مستقبل ولده

أما هو ، فقد أحس بهذا الحنان الذى حرمه منذ عهد طويل ، فلم يملك بإزائه إلا رد الجميل ، فطلب يدها ، فامتدت إليه راضية .
وعاد بها إلى مصر ، وسكنا بيتاً هادئاً فى ضاحية المطرية ، ورزق منها ثلاثة : رمزى (وهو الآن موظف بسكرتيرية الأمم المتحدة بنيويورك) وصفيه ، التى أخذت عن أبيها شاعريته ، وقد أصدرت ديواناً من القصائد الشعرية فى واشنطن حيث تقيم (وتعمل بالسفارة . السعودية) وهدى ، التى تطوعت للعمل ببحرية الولايات المتحدة عقب صدمة عاطفية ، ثم تزوجت طبيباً بحرياً أمريكياً ، وقد اختيرت منذ سنوات ملكة جمال للبحرية الأمريكية .

* * *

عرفنا من نواحيه حتى الآن أنه شاعر وطبيب بكتريولوجى .
وبقى بعد هذا أن نتبين نواحيه الأخرى . . .
كان أبو شادى صحيفياً متعدد الجوانب ، يصدر خمس مجلات فى وقت واحد ، والأعجب من ذلك ، أن كل مجلة من هذه الخمس ، كان لها لونها الفريد البعيد كل البعد عن الأخباريات .
كانت أولها « أبولتو » للشعر ...
وكانت الثانية « مملكة النحل » لسان جمعية النحالين المصريين .
وقد كان أبو شادى ملكاً لمملكة النحل فى مصر ، ورائداً من رواد النحالة فى العالم بأسره ، وله فى هذا الباب جهود ضخمة وبحوث كثيرة أشهرها بحثه الذى دعا فيه إلى تحويل واحة سيوة إلى محطة عالمية للنحالة

قبل ثورة الجيش بعدة سنوات ، ولكنه أخذ نفسه برسالة الأحرار قبل قومتهم بجيل من الزمان .

ومنذ يومه الأول في أمريكا ، راح في الصحف العربية التي تصدر هناك يهاجم الملك والإقطاع والأحزاب وفساد الحكم في مصر ، ويدعو إلى الثورة ... الثورة التي تحققت بعد ذلك بأربع سنوات .

على أنه لم ينقطع عن رسالته الأدبية هناك ، فقد أجال قلمه في صحيفة « الهدى » العربية التي كانت تصدر في نيويورك ، وفي غيرها من الصحف ، وفي إذاعة صوت أمريكا . تحدث كثيراً عن مصر وعن الأدب الجديد ، وعن الإسلام ، واستحدث نشاطاً أدبياً ضخماً بين أدباء المهجر الأمريكي .

ولما قامت ثورة يوليو . حاول عارفو فضله أن يردوه إلى مصر . ولكن المرض كان قد أثقل عليه . وكان أولاده قد نظموا حياتهم على المقام هناك ، فاستسلم للمنفى إلى أن تلى وجهه ربه في ١٢ أبريل سنة ١٩٥٥ .



أمير الشعراء

أحمد شوقي

شارع من أقصر شوارع مصر ... لا يمتد إلى أكثر من بضعة خطوات في ضاحية الجيزة ، هو كل ما خلدنا به ذكر أعظم شاعر في تاريخ مصر .

إنه شارع « أحمد شوقي بك » ... الشاعر الذى مال كما تميل الشمس في ضحاها ، يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

هناك ... تقوم « كرمة ابن هانى » على رأس الطريق ، مظلة بحديقته ونوافذها وشرفاتها على صفحة النيل الخالد ، كأنها تسأله بلسان ربها الراحل :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟
وبأى كف فى المداين تغدق ؟
ومن السماء نزلت ؟ أم فُجِّرت من
عليا الجنان جداولا تترقق ؟

* * *

هذه كرمة ابن هانى .. مهبط الوحي على أمير الشعراء . وعندما زرتها لآخر مرة فى سنة ١٩٦٠ ، كانت روحه الخالدة لا تزال مرفقة هناك فى كل غرفة ، ولا تزال منه قطعة عزيزة فى كل ركن .. وأعزها من بقية الأسرة هناك ، هذه العقيلة الكريمة المعتكفة فى ركن من الحديقة أكثر أيامها ، تصلى فى محراب الذكريات .

فهلا تساقينا على حبه الهوى
وهلا فديناه ضفافاً وادياً ؟
ومازال منكم أهل ود ورحمة
وفي المسلمين الخير مازال باقياً
هذه الشوقية غير المشهورة ، أعدّها من أجل الأعمال الوطنية في
تاريخ مصر الحديث .

سعد زغلول :

كانت هناك جفوة بين شوقي وسعد في بعض الآونة . ولكن تقدير
كل من الرجلين للآخر لم يتأثر بهذه الجفوة في يوم من الأيام . بل
إن كلاهما كان يطوى صدره على ودّ كامن للآخر ، تحول دون
إظهاره قسوة الظروف .

فإن أردت مصداقاً لهذه الحقيقة ، فحسبك أن تعرف أن سعداً ،
يوم زفاف على بن شوقي ، أجل البرلمان ساعة كاملة ليحضر الحفل
وهذا شيء لا نظير له في تاريخ البرلمانات .

وحينما ذهب ، وجلس مع شوقي ، أخذت لهما صورة معاً .
وقال الأستاذ الجليلي ، وهو يومئذ سكرتير سعد : « هذه صورة
الخالدين » .

فابتسم سعد ، وأشار إلى شوقي قائلاً : « هنا الخلود » !

خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيسد سجين
ولا تعرضوا شعري عليه فحسبه
من الشعر حكم خطه يمين
ولا تقرءوه في شبرد « بل اقرءوا
على ملا في دنشواى حزين

وشوقى هو شاعر الدنيا ...
وهو شاعر الفراعنة والعرب ..
وهو شاعر الأقباط والمسلمين ..
كانت مصر ، بكل ما يحفل به ماضيها ، وما يجتازه حاضرها ،
وما يؤمل لمستقبلها ، أقوى مادة للإلهام عنده .
وملحمته الخالدة « كبار الحوادث في وادى النيل » التى ألفها
في المؤتمر الشرق الدولى المنعقد فى مدينة « جنيف » فى سبتمبر سنة
١٨٩٤ كممثل للحكومة المصرية ، من أروع الملاحم فى تاريخ الشعر
العربى جملة ، فهى تروى قصة مصر بكل ما عبر بها من أحداث منذ
عهد الفراعنة إلى ذلك الحين (١٨٩٤) رواية مفصلة جرى فيها على
روى واحد من الشعر فى غير تكلف ولا افتعال ، إلى أن وصل إلى
ثلثمائة بيت .

وقد لجج به هوى مصر ، أكثر ما لجج ، إذ هو فى منفاه بالأندلس ،

ثم ها هو ذا يتحدث عن ميلاد المسيح ودخول المسيحية إلى مصر
فيقول :

ولد الرفق يوم مولد عيسى
والمرءات والهدى والحياء
ازدهى الكون بالوليد ، وضاعت
بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يه
رى من الفجر في الوجود ضياء
لا وعيد ، لا صولة ، لا انتقام
لا حسام ، لا غزوة ، لا دماء
إنما ينكر الديانات قوم
هم بما ينكرونه أشقياء

* * *

وهو على شدة اعتداده بإسلامه ، يرى مصر ديناً مع الدين ،
وأخشى أن أقول إنه يراها ديناً قبل الدين ، كما تشهد بذلك أبياته
التي قالها حينما ثارت الفتنة بين المسلمين والأقباط في مصر عقب مصرع
بطرس غالى ، والتي سقتها من قبل .

وقصيدته في النيل هي من خير مصرياته ، وهي تربو على مائة
وخسين بيتاً ، تجرى في أروع النغم وترسم أجمل الصور ، ويستهلها
بقوله :



شاعر الزنك

أحمد فتحي

طوراً ، وعلى صلة يصله بها صاحبه الأمير تارة ، إلى أن ودع الحياة وهو في غيبوبة ثمالة ، وحيداً في غرفته بالفندق ، في اليوم الرابع من يوليو سنة ١٩٦٠ .

• • •

مات أحمد فتحي دون أن ينال أى نصيب من الدنيا وعلى شفثيه وهم خلود يهمس للناس :

ماذا أفدت بأشعاري وروعها سوى علالة تخليد لآثاري
وما الخلود بماثور لعاريصة غير الحسيسين من ترب وأحجار



المستقبتي الجديد

إلياس فرحات

الأخطار الصغيرة

بشارة الخوري

